آل سعود في الشعر القطيفي الحديث

قصائد حبرها حب الوطن!

كتب/ حبيب محمود

عرف الشعر القطيفي طريقه الى مديح السعوديين، حكاما وامراء، منذ مراحل مبكرة جدا من تاريخ العلاقات النجدية القطيفية، وتحديدا منذ عهد الامام عبدالله الفيصل آل سعود، في اواخر عهد الدولة السعودية الثانية.

فقد مدحه الزعيم الشاعر احمد بن مهدي بن نصر الله بقصيدة دالية طويلة تشي بمكانة الزعيم نصر الله وعلاقة القطيف بالحكومة السعودية، آنذاك. القصيدة موجودة في ديوانه المخطوط، وهي - على طولها - تقدم بلاغة القصيدة الاصيلة عند احمد بن مهدي، وتتعرض الى احداث تاريخية كان الامام عبدالله الفيصل واحمد بن مهدي قد اشتركا فيها على نحو من انحاء التحالف.

امام المسلمين

يقول مطلع القصيدة التي نظمها نصر الله سنة ١٢٨٦هـ:

ما اجدر الدهر للعافي بتجديد
حسب المنايا نفوس الفتية الصيد

ويقول في القصيدة نفسها:

ابعد ان غال راسي الشيب واختلفت
فيه العمائم من بيض ومن سود
اصبحت ادعو بايام الصبا طربا
وامتطي في المنى هام الصياخيد
اني احاول امرا لست ادركه
الا بأروع في الآمال مصمود
هو الامام امام المسلمين ومن
لولاه ما كان لي عيش بمرغود
ماضي العزيمة طلاع بعزته
على الخطوب لريب الدهر معدود
شمس الممالك ما اقتلت نوازقها
الا والقت اليه بالمقاليد

وتمضي القصيدة الى ان تصل الى مائة وثلاثة عشر بيتا من الفخر والمدح والوصف والحماسة والشكوى، في اساليب بلاغية عباسية النفس لم تخل من السرد والسجع والطباق والجناس والمفردات البديعية المعروفة في العصور السالفة.

شعر مناسبات

وتشير المصادر المتوفرة الى ان عددا من شعراء القطيف، في عهد الدولة السعودية الحالية، قد اهتموا بملوك المملكة وامرائها في اشعارهم، ووجد بعضهم في الاحداث الوطنية المختلفة مناسبات للتعبير عن انفسهم في قوالب شعرية.

ولذلك فان معظم ماكتبه شعراء القطيف في الاسرة السعودية الحاكمة يمكن ان يصنف ضمن شعر المناسبات، وهناك نصوص اخرى يمكن تصنيفها ضمن اطر فنية اخرى، على صعيد الشكل والمضمون معا، كما سنرى.

علي الرمضان

ويقدم ديوان «وحي الشعور» للملا علي بن محمد الرمضان جزءا مهما ومبكرا، من تاريخ شعر القطيف في آل سعود، والرمضان شاعر كلاسيكي عاش بين عامي ١٣١٤هـ - ١٣٩٨هـ رحمه الله، وكان خطاطا ومعلما، طبع ديوانه في العراق سنة ١٣٧٩هـ، وقبل نحو عامين حدث احد المهتمين الديوان في طبعة منزلية، وهي عند احد ابنائه، فيما اعلم، والمهم هو انه انشأ مجموعة قصائد في الاسرة السعودية، منها رائيته في رثاء الملك عبدالعزيز رحمه الله، ومدح الملك سعود.

يقول فيها:

بطل العروبة مجدها والمفخر
صقر الجزيرة قطبها والمحور
ماضي العزيمة ما طغى متكبر
الا وحل به العذاب الاكبر
ايه (سليمان الملوك) ومن بنى
بالعز عرشا عنه يقصر قيصر
عبدالعزيز فدتك كل ملوكها
وبلادها وسريرها والمنبر

ومن المديح بمنتقل الرمضان الى الرثاء فيقول:

لما قضيت تنكست اعلامها
والشعب طبقه النعي المذعر
وتكدرت ام القرى وبكت له
مصر وجامعها المنير الازهر
وبجدة صار الاسى متجددا
وله الرياض عيونها تتفجر
والخط خط الحزن منها مفرقا
فالشعر امسى بالشجى يتعثر
واندك حصن للعروبة مائل
وبنودها طويت وعادت تنشر

وبقدر ما كان الرمضان متحملا مسئولية الوصف والتعديد والسرد امعانا في التفجع، فانه التفت الى مضمون اخر يتعلق بخليفة الملك المرثي، فتخلص كما يقول البلاغيون - الى مديح الملك سعود رحمه الله بقوله:

امست ملوك العصر اعراضا به
ان قستها وهو اللباب الجوهر
وخلائق مثل النسيم لطافة
وعواطف هي بالجنان تذكر
وهو المرجى منه عدل شامل
ينسى به كسرى وعنه يؤثر
وبه تؤمل ان يكون لشعبنا
مستقبل بسنى المعارف نير

الملك سعود في القطيف

وحين زار الملك سعود القطيف، وهب الاهالي والاعيان للاحتفاء بمقدمه، كان شعر الرمضان جزءا من الاحتفاء الذي قابل به الاهالي مليكهم، فقال من قصيدة عنوانها «القطيف تبتهج بسعودها»:

بدر اطل على القطيف تمام
فزهت به الدنيا وزال ظلام
وتأرجت ارجاؤها منذ طنبت
بالعز فيها للمليك خيام
ياسعدها بحلول بدر سعودها
فيها ومن هو للانام امام
اليوم فلتنشر بنود لهنا
ولتغد مزهرة به الايام

ويقول في موضع آخر من القصيدة:

لاتقنطي ياخط مما ترتجي
فالوعد برد والوعيد سلام
بشراك بالملك السعيد ومن له
الرأي السديد.. هو الفتى المقدام
ملك له ارث الخلافة اذ بدا
مصر تقر وتشهد الاهرام
والبيت يعلم انه الحامي له
ومقام ابراهيم والاسلام

ولم يكتف الرمضان بهذه القصيدة ترحيبا بالملك، بل كتب قصيدتين اخريين، مطلع الاولى:

زار المليك فمرحبا بالزائر
اهلا سعدت لنا باسعد طائر

ومطلع الثانية:

ياماليكا به تحف الجنود
وبه رغبة تطوف الوفود

الملك فيصل

وحين زار الملك فيصل، رحمه الله القطيف سنة ١٣٨٤هـ، وكان وقتها وليا للعهد، كان الشعر حاضرا، ايضا، ولكن هذه المرة على لسان شاعر آخر، هو محمد سعيد الجشي، رحمه الله ١٣٣٩هـ - ١٤١٠هـ.

يقول الجشي:

هب النسيم بداعب الاعشابا
من افق نجد ينعش الاحبابا
هبت لليلى نفحة عطرية
غمرت سهولا في الفلا وهضابا
وكان «قيصا» ارسلت اوتاره
نغم الهوى متدفقا منسابا
واطل للتاريخ وجه مشرق
يضفي على البلد العريق اهابا

ومن هذه الديباجة الاحتفالية ينعطف الجشي مخاطبا الملك فيصل «الامير وقتها» بقوله:

يا فيصل العرب العظيم تحية
باسم القطيف ازفها اطيابا
هي بالولاء حفية ووفية
فاهطل عليها في نداك سحابا
شرف حللت بها وطفت بأرضها
ولقد حللت بها القلوب رحابا
جددت من عمرانها وكيانها
ما كان فيها باليا وخرابا

ويقول ايضا:

انا على هذي الضفاف كتائب
عربية تهوى السنى الخلابا
تحيا مع الاسلام في تشريعه
وتشايع القرآن لا الاحزابا
انا يوحدنا الكتاب منزلا
جعل الابا عد اخوة احبابا

ويقول:

يافيصلا حييت قائد امة
وافت اليك تزاحم الحجابا
فخذ الزمام الى الامام مظفرا
ما كنت خوارا ولا هيابا

بيعة الملك خالد

وبعد وفاة الملك فيصل، وتسلم الملك خالد مقاليد الحكم، رحمهما الله، كتب عبدالله الشيخ قصيدة «تحية المجد» والقاها في حضر الملك بقصره بالرياض. ورغم ان «تحية المجد» قصيدة مدح في الاساس، فان عبدالله الشيخ جعل منها قصيدة وطنية تميزت بحسها الذاتي الذي تمثل، اكثر، في ابيات الفخر..

يقول الشيخ:

ارخيت للشرف الرفيع عناني
ونذرت للمجد المنيع بياني
مادنست يوما كريم خلائقي
شية العقوق ومابرحت مكاني
اشدو على ايك الفخار وفي يدي
ما في بلادي من عظيم الشان

ومن الذاتية الى الوطنية.. يقول:

في نجد عبر هضابه وسفوحه
فوق الحجاز منارة الايمان
في الخط مهد طفولتي ربواتها
خضر المروج وواحة الغيطان
بلد النخيل عرفت مر ثمارها
شهدا وصنت بحبها ايماني
تلك النخيل الوارفات ملاعبي
عذبت بوارف ظلها الحاني
كم جئتها وقت الهجير فمسحت
تعبي ومدت للحنان يدان
الله اكبر كيف اغمط حقها
وصباي بين الكرم والرمان
التين كم قطفت جناه اناملي
واللوزكم خضبت دماه بناني
ومن حب القطيف الموطن الصغير.. الى حب الوطن الكبير.. والى المدح.. يقول:

بلد لآل سعود من اجداده
سفر الخلود على مدى الازمان
لابيك صقر العرب من صفحاته
ماسطرت كف الزعيم الباني
ولفيصل العلياء اروع صفحة
خطت بسعي القائد المتفاني
شادوا من المجد العريض شوامخا
وتشيد مجدا شامخ البنيان

ويقول:

وطني وحبك في فؤادي خفقة
اصداؤها ابدا تهز كياني
اهواك موفور الكرامة شامخا
اهواك في حبي وفي اعلاني
واصيد كيد المفترين وانه
شرف رعته شريعة الرحمن
القوم قومي والديار مرابعي
فالعز عزي والهوان هواني
فاذا هتفت فللفخار ملاحن
ولئن شدوت فلابناء اغاني
والمجد خالد يوم يوبع قائدا
حلو النشيد من الفؤاد تهاني
يا خالد الامجاد الف تحية
من ذوب قلبي من اريج جناني
حملت من الحب الكبير نقاءه
ومن الوفاء طهارة الوجدان
ومن الثناء مشاعرا فياضة
ومن الابا كرامة الانسان
ومن النوا جماله وجلاله
صورا جلتها ريشة الفنان

عبدالكريم الحمود

ويعتبر عبدالكريم الحمود اكثر شعراء القطيف اهتماما بمديح الاسرة الحاكمة في المملكة وفي ديوانه اريج الرياض المطبوع سنة ١٤١٦هـ اقوى دليل على ذلك.

يضم الديوان عشرين قصيدة عمودية كتبت في مناسبات شتى بين عامي ١٤٠٢ - ١٤١٦هـ، اولى هذه القصائد قصيدة «انسان العين» التي القاها في الحفل الذي اقامه اهالي القطيف لاستقبال الملك خالد، في زيارته لها شهر رجب سنة ١٤٠٢هـ ومطلع القصيدة:

اتانس في فتح اجفانها
عيوني الى غير انسانها

وفيها يقول مخاطبا الملك رحمه الله:

وهذي القطيف عروس الخليج
اليك شكت طول هجرانها
وما كان هجركها عن قلى
او الغض - حوشيت - من شانها
وانت المعمر بنيانها
وانت مشيد اركانها
وانت المجدد منها البلى
وماسح دمعة احزانها
وانت وانت وانت وانت
لابعد غايات تبيانها
حشود من الناس قد اقبلت
تردد اجمل الحانها
تجدد بيعتها للمليك
وتعطيه صفقة ايمانها
وتمنحه ودها خالصا
مؤكدة صدق ايمانها
وكانت بسابق ازمانها
قديما ولاحق ازمانها
ولاها لابناء عبدالعزيز
حماة البلاد واركانها
وما نكثت ابدا عهدها
ومابدلت قط من شانها

خادم الحرمين

ويقول في قصيدة «وجاء دور الفهد» التي القاها امام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله، في قصر السلام بجدة شهر محرم ١٤٠٨هـ:

ابا فيصل انت قطب الرحى
لمن عبدالله او وحدا
فقد بايعتك جميع البلاد
امام ومنتدبا مقتدى
تمسك بها انت اهل لها
وانك املكها مقودا
وخذها على نهج عبدالعزيز
سيرا بها في طريق الهدى

وفي قصيدة «الفجر السعيد» يقول في خادم الحرمين الشريفين ايضا:

طلع الفهد علينا اليوم فجرا
باركوه ان في برديه فخرا
انه مثل ربيع وافد
حاملا للشعب آمالا وبشرا
باركوا القائد في وثبته
فلقد صار زعيم الشرق طرا
كم له من وقفات تركت
السن الناس به تلهج ذكرا
خادم الدين وحامي شرعه
والمليي امره سرا وجهرا

ولي العهد

وفي قصيدة «المزايا الحميدة» يقول في مديح سمو ولي العهد الامير عبدالله بن عبدالعزيز:

لي في مزاياك اقوال واقوال
ولي عليها دلالات وامثال
تهواك منا حشاشات وافئدة
وملؤها لك اكبار واجلال
اخا المليك المفدى انت خير فتى
عليك تعقد - بعد الله - آمال

وفي القصيدة ذاتها يقول:

عبدالعزيز بناها دولة ولها
في موطن العز ابعاد واطوال
فان خلا من ابي الاشبال موقعه
فانتم في عرين الليث اشبال
آل السعود اعز الله ملتهم
بكم فانتم لها جند وابطال
رفعتم راية الاسلام عالية
وليس يرفع بند الحق ختال
والله لما اجتبى من خلقه بشرا
لخدمة البيت كنتم ايها الآل

أمير الشرقية

ويقول في قصيدة «بر الوالدين» في مديح سمو الامير محمد بن فهد امير المنطقة الشرقية، وقد كان سموه عائدا من مرافقة والدته، رحمها الله، في رحلة علاج خارج المملكة:

محمد انت البر ان فقد البر
وانت بر الوالدين فتى بر
سهرت على ام تغذيت درها
كما سهرت عامين.. قد اتمر الدر
فما ضاع منها عطفها وحنينها
فانك نعم الذخر والولد الحر
ايا شبل فهد والفتى يشبه الفتى
وليس له في الند زيد ولاعمرو
بررت وارضيت الامومة جاهدا
ولم تال جهدا دائبا فلك الاجر

ويقول في نفس القصيدة:

وان انس لا انس الفتى الشهم فيصلا
فذاك اخوك الصنو والولد البكر
لقد كنتما فذين في البر والعطا
فبركما بالام ذاك هو البر